في نقاش المنتقدين لحزب الله... فلندرك ولنعد الاعتبار للحقائق:

قوات الحزب ستبقى في مواقعها وبعد كل هذه الدماء والمعاناة والتدمير لن يفرّط حزب الله بأوراقه

من الخطيئة إلقاء تبعات العدوان الصهيوني الممارس ضد الفلسطينيين أو اللبنانيين على عمليتي أسر الجنود الإسرائيليين

د. فايز رشيد*

■ كان ملاحظاً بعد العملية البطولية التي نفذها حزب الله بأسر الجنديين الصهيونيين، وردود الفعل الإسرائيلية التي تتمثل في تدمير لبنان بنيةً تحتية وترويعاً لمواطنيه... ازدياد حدة الأصوات التي تحمّل الحزب مسؤولية ما يحدث واتساع قاعدتها عرضياً، إن على مستوى بعض الأطراف اللبنانية والعربية الرسمية، والأخرى التي تدّعى تمثيلها لفئات شعبية، إضافة إلى بعض الأقلام في الصحافة، أو خلال مداخلات على الفضائيات العربية... فمرّة من خلال تسمية العملية (بالمغامرة الغير محسوبة)، أو من خلال محاسبتها بمقاييس الربح والخسارة بعيداً عن حقائق الصراع وعدوانية العدو، وبعيداً عن مقاييس الكرامة الوطنية... في حملة من التلاقي قصداً أو عن غير قصد مع المنطق الإسرائيلي، والذي هو خارج إطار دائرة إيجاد المبررات لأجل اقتراف العدوان، ومع منطق الإدارة الأمريكية والتساوق معه... والذي يعطي إسرائيل الحق في الدفاع عن نفسها، وكأن هذا الحق لا يتم إلا من خلال قتل الأطفال المدنيين وحرقهم أحياء، وتدمير الجسور ومصادر المستلزمات الحياتية من كهرباء وماء ونفط في شهية نهمة ووحشية في تصعيد اقتراف الجرائم... وكأنها تنتقم تماماً من أية مظاهر مدنية أو مدينية أو حضارية على حدٍّ سواء.

هذا الاتجاه الخاطئ والتضليلي في الحسابات السياسية هو بمثابة الطابور الخامس في المعارك، وبخاصة الوطنية، فهو لا يدرك طبيعة الأعداء من جهة، ولا يؤمن بالطاقات المختزنة في الجماهير الشعبية، وإمكانية استغلالها إذا ما أُحسنت الحسابات السياسية في خوض طلائع هذه الجماهير وقواها للمعركة الدائرة، وبخاصة عند امتلاكها للوسائل العسكرية، والتي هي في موازين القوى بسيطة مقارنة مع ما يمتلكه العدو، لكنها بالتخطيط السليم والإرادة تستطيع أن تكون مؤثرة وفاعلة وقادرة على أن تلعب دوراً أساسياً في عملية الصراع، والذي هو أولاً وأخيراً محكوم بقوانين أساسية... أو إمّا أن أصحاب هذا الاتجاه الخاطئ يخططون وبالتنسيق مع جبهة العدو في تناغم كبير لتحقيق المصالح المشتركة بين الجانبين على حساب المصالح الوطنية الذاتية... وعلى حساب المصالح العربية.

إسرائيل لم تكن على مدى تاريخها بحاجة إلى مبررات لاقتراف عدوانها على الأمة والبلدان العربية... وعلى سبيل المثال لا الحصر.. ما هي مبرراتها لتدخل طرفاً رئيسياً في حلف ثلاثي مع بريطانيا وفرنسا للاعتداء على مصر في عام 1956؟ كذلك هي كل حروبها ضد العرب. العدوان هو صفة ملازمة للوجود الإسرائيلي، وإسرائيل جزء رئيسي أيضاً في المخطط الاستعماري لمنع هذه المنطقة العربية من التطور أو إيجاد أية أشكال من الوحدة... وفي الوقت الذي تتخلى فيه إسرائيل عن عدوانيتها وتشكيلها لرأس جسر متقدم للمخططات المعادية... فإننا سنصبح أمام دولة هي ليست إسرائيل... أو أنها ستلبس جلداً غير جلدها، وهذه الحالة يستحيل الوصول إليها على المدى المنظور.

حزب الله ومنذ إجبار العدو الصهيوني على الخروج مندحراً من الجنوب اللبناني في عام 2000، أصبح مطروحاً على جدول أعمال الولايات المتحدة وإسرائيل ومنظومة الدول الغربية، باعتباره قوة يجب تدميرها وإزاحتها من الطريق.

محاولات كثيرة جرت لتطويع الحزب بالمعنى السياسي، ولكن ولأن الحزب لم يركع وظلّ محتفظاً بهويته الوطنية والقومية والإسلامية، إن في تشكيله عقبةً كأداء لما يخطط غربياً وإسرائيلياً للبنان، أو من خلال برنامجه السياسي وتضامنه العضوي مع المقاومة الفلسطينية وتلاحمه مع حركة الجماهير العربية، ووقوفه مع إيران في معركتها مع الغرب عموماً والولايات المتحدة بشكل خاص في الصراع الدائر حول محاولة إيران امتلاك برنامج نووي خاص بها. بعد الانتخابات التشريعية الفلسطينية، وتسلم حماس للحكومة في المناطق الفلسطينية، رأت الولايات المتحدة في ذلك تطوراً في غير مصلحتها وإسرائيل، ودعماً إضافياً للخط المواجه لمخططاتهما، إن في فلسطين أو في المنطقة العربية والإقليمية أيضاً... وبخاصة أن حزب الله يمتلك أسلحة ومنظومة صواريخ متطورة تهدد مفهوم الأمن الإسرائيلي، وتشكل في الحسابات العسكرية عاملاً رادعاً لإسرائيل من خلال إيجاد نمط من توازن الردع بين الطرفين.

وسط كل هذه التطورات، وخاصة بعد اغتيال رئيس الوزراء اللبناني السابق رفيق الحريري وما تلا ذلك من تداعيات كان أبرزها خروج القوات السورية من لبنان... انتقل الحزب في الأجندة الأمريكية والإسرائيلية إلى وضع (النقطة الساخنة) من حيث أهمية القضاء عليه.

وقبل الدخول في معركة عسكرية معه من أجل ترويضه على طريق القضاء عليه، كان لا بد من خلق مجموعة إشكاليات له على الأصعدة اللبنانية والعربية والإقليمية.

لبنانياً... ممارسة ضغوط هائلة على الحزب من خلال الحكومة وقوى 14 آذار (مارس) لسحب سلاحه وتخليه عن تواجده في الجنوب اللبناني، وتحوله إلى حزب سياسي مثل باقي الأحزاب الأخرى، وبخاصة أن الغطاء لممارسة الضغوطات عليه جرى من خلال المطالبة بفرض سلطة الدولة على كل الأراضي اللبنانية... وهو شعار يبدو عادلاً ومنطقياً في عرف الكثير من القوى والأحزاب السياسية اللبنانية، وكأنه ليس استجابةً للإملاءات بتطبيق القرار 1559، والقاضي في أحد بنوده بنزع سلاح حزب الله باعتباره ميليشيا، رغم أن أراضي شبعا ما زالت محتلة من قبل إسرائيل، ورغم أن المعتقلين اللبنانيين ما زالوا في السجون الإسرائيلية.

كذلك ومن أجل المزيد من إحراج الحزب، ووفقاً للتصورات الإسرائيلية فإن معاناة الجماهير اللبنانية من خلال الاعتداءات الإسرائيلية عليها ستشكل انفضاضاً جماهيرياً من حول الحزب.

عربياً وإقليمياً، تحاول الولايات المتحدة وإسرائيل إيجاد ربط قسري بين الشعارات التي يطرحها حزب الله، وبين حليفيه المعلنين سورية وإيران، في محاولة افتئات واضحة على وطنية وعروبة وإسلامية الحزب من خلال التصوير، بأنه يخوض المعركة دفاعاً عن إيران وبتسهيلات كبيرة من سورية، وذلك من أجل إحراجه على الصعيدين الرسمي والشعبي العربي.

لا ينكر أحد أن للحزب علاقاته الوثيقة مع سورية وإيران، وكذلك إمكانية تنسيقه مع الدولتين في أمورٍ وقضايا كثيرة، وهما أولاً وأخيراً مصدر تسليحه.

ولكن، ومن جانب آخر فليس من مصلحة أي من سورية وإيران وفي هذه المرحلة تحديداً تسخين الأوضاع لا مع إسرائيل ولا مع الولايات المتحدة، فالدولتان مستهدفتان وهما موضوعتان على رأس القائمة الأمريكية (كدولتين داعمتين للإرهاب) وهناك ضغوطات كثيرة ممارسة عليهما: إيران في موضوعها النووي، وسورية في الموضوعين العراقي والفلسطيني... وهما ستتأثران حكُما بالمعركة الدائرة حالياً... فأي انكفاء (لا سمح الله) للحزب في لبنان هو انكفاء لسورية وإيران. وليس صدفةً هذا الربط الأمريكي – الإسرائيلي – الغربي... للدولتين بالمعركة في لبنان، وذلك في محاولة واضحة لجرهما إلى دائرة الصراع، بما يعني إمكانية الاستفراد بهما كعقبتين أمام تمرير المخططات الأمريكية – الإسرائيلية في المنطقة، وخسارة أي منهما في معادلات الصراع ستؤثر بالضرورة على حزب الله وبالتالي ستشكل انتصاراً لمنطقة قوى 14 آذار، مما سيؤدي بدوره إلى تغريب لبنان نهائياً.

حرص إيران على التهديد بالرد القاسي على إسرائيل فيما لو اعتدت على سورية، يؤكد ما ذهبنا إليه إدراكاً من إيران لصعوبة المعادلة الحالية، وبأنها ستكون حلقة تالية لسورية، وما يحمله ذلك من أخطار على مستقبل برنامجها النووي ومخططاتها لدورها الإقليمي. إيران تمتلك أوراقاً ضاغطة كثيرة بالنسبة لما يدور في المنطقة من صراعات، فتحت قبضتها أرواح مئة وخمسين ألفاً من جنود الولايات المتحدة في العراق، وإمكانياتها كبيرة لقلب الطاولة رأساً على عقبٍ فيه، إضافة إلى الأسلحة المتطورة التي تمتلكها، وقد أظهرت المناورات العسكرية والبحرية التي أجرتها مؤخراً مدى التطور الحاصل في نوعية أسلحتها.

بالتالي... فإن العلاقة القائمة بين إيران وسورية وحزب الله، تتجاوز دائرة تحريك الحزب كأداة لخدمة الأهداف الإيرانية – السورية (مثلما يتصور البعض) إلى دائرة التحالف المفروض (إضافة إلى الأسس الأخرى لقواعد التحالف)، لأن الدفاع عن الآخر هو أولاً وأخيراً دفاع عن الذات... فكل هذه الأطراف مستهدفة، لذلك لا يجوز تسخيف ما قام به حزب الله وتصويره كاستجابة لاملاءات إيرانية وضغوطات سورية!.

ما تقوم به إسرائيل من تدمير وحشي نازي تام للبنان وممارسة جرائم القتل لمدنييه وحرق أطفاله، وتغيير قواعد اللعبة (مثلما أسمى ذلك قائد حزب الله السيد حسن نصر الله) يتجاوز دائرة ردود الفعل على اختطاف جنديين إلى دائرة التدمير المبرمج وفق خطة مسبقة معدّة سلفاً للتنفيذ. ولم يكن صعباً على إسرائيل اختلاق المبررات للقيام بها... فلو لم تكن عملية اختطاف الجنديين قائمة، لجرى اتهام حزب الله بأنه المحرض لإطلاق الفلسطينيين الصواريخ على عسقلان وبالتالي لابد من معاقبته، تماماً مثلما تطالب واشنطن سورية باعتقال خالد مشعل، وإلاّ فهي متهمة! انفلات قوة إسرائيل من عقالها في العدوان على لبنان... هو انعكاس حقيقي لنهج جرى رسم خطوطه قبل ولادة الكيان الصهيوني كدولة. وتكرّس مع مضي السنوات على إنشائها، وازدادت وتائره بفعل التقدم التكنولوجي في تصنيع الأسلحة.... ويطلقون عليه أسماء كودية مثل: ردع العرب، الحرب الاستباقية، الدفاع عن النفس، وغيرها من المصطلحات، في إطار من الفعل تدميري وترويعي ينبّه ويذكّر كلَّ عربي بقدرات إسرائيل الردعية، بهدف القضاء على مبدأ المقاومة في العقلية العربية... وبالتالي الامتثال لما تقرره إسرائيل للمنطقة، ولما تحاول فرضه من تسويات على الفلسطينيين وعلى العرب من خلال القضاء على بؤر المقاومة واحدةً بعد أخرى وكذلك على الدول التي تدعمها.

ومثلما كان الفيتو الأمريكي على قرار مجلس الأمن لإدانة الجرائم الإسرائيلية في غزة، كان التسويف الأمريكي بجعل المجلس لا يصدر قراراً لوقف إطلاق النار في لبنان، بهدف إتاحة الفرصة أمام إسرائيل لمحاولة فرض شروطها الثلاثة التي حددها أولمرت للقبول بمبدأ الوقف: إنشاء منطقة عازلة في جنوب لبنان، سحب أسلحة حزب الله وفرض الدولة اللبنانية سلطتها على كل أراضيها، واستعادة الجنديين دون شروط. وبدلاً من أن يقنع الرئيس بوتين نظيره الأمريكي بالضغط على إسرائيل لوقف عدوانها على لبنان في اجتماع قمة الثماني في بطرسبرغ، بعد أن تحمس الأول للوقوف في وجه الإفراط في القوة التي تمارسه إسرائيل قبيل انعقاد هذه القمة... رأينا تبنياً من قبل الرئيس الروسي لوجهة النظر الأمريكية، في حق إسرائيل في الدفاع عن نفسها! بغض النظر عن تصريح الرئيس الفرنسي شيراك الذي يرى (عدم تكافؤ القوى بين إسرائيل ولبنان) والذي يقّر (بوجود خطة منهجية لتدمير لبنان).

البيان الصادر عن اجتماع قمة الكبار طلب وبشكل خجول من الطرفين العمل على وقف إطلاق النار وإطلاق سراح الجنديين. هذا التذبذب في المواقف من قبل الدول الكبرى يعكس حقائق العصر الجديد (حقائق ما بعد انهيار الاتحاد السوفييتي ودول المنظومة الاشتراكية) والذي على الرغم من مجموعة التراكمات الحاصلة لأحداث متغيرات دولية في أكثر من منطقة جغرافية فيه، لصالح عدم إتاحة الفرصة للقطب الواحد في التحكم بالمجتمع الدولي... إلاّ أن هذه التراكمات لم تُحدث تغيراً نوعياً بعد، يعبّر عن نفسه في الخلاص نهائياً من تحكم هذا القطب، الذي يتساوق ويندمج تماماً مع الرؤية الإسرائيلية للمنطقة العربية والأخرى الإقليمية، وبالتالي فهو حقيقة أيضاً من حقائق الصراع القائم بين الأمة العربية من جهة، وبين الكيان الصهيوني وحلفائه من جهة أخرى.

لذا كان من الطبيعي أن يعلن أولمرت رفضه لقاء وفد الأمم المتحدة الذي أرسله الأمين العام إلى المنطقة في محاولة التوفيق بين الأطراف المختلفة في الصراع، إلاّ إذا كان هذا الوفد آتياً للاستجابة للمطالب والشروط الإسرائيلية، بما يعنيه ذلك من غطرسة سياسية إضافة إلى الغطرسة العسكرية التي تمارسها إسرائيل في استباحة لبنان دون محرّمات!.

هل من جديد في الموقف العربي؟

اجتماع وزراء الخارجية العرب في القاهرة لبحث ما يجري في لبنان، وإضافة إلى التناقضات في المواقف بين الدول المشاركة فيه... كان اجتماعاً لرفع العتب أكثر منه اجتماعاً للتقرير في قضية مصيرية لإحدى الدول العربية، ولم تراهن الجماهير العربية يوماً ما، على الاجتماعات الرسمية العربية، بما في ذلك مؤتمرات القمة، وإمكانياتها للخروج بأية قرارات مؤثرة على الصعيد الفعلي.

لكن، كان لافتاً للنظر ما صرّح به الأمين العام للجامعة العربية، السيد عمرو موسى (وربما هذه في الأغلب تعكس وجهة نظره الشخصية) من أن إسرائيل لا تريد السلام، وأن الدول الكبرى واللجنة الرباعية سلمت إسرائيل ملف العملية السلمية كي تفعل به ما تشاء، وأن الجميع مارسوا استهزاء (وضحكوا على الذقون العربية – على حد تعبيره).

نقول بأهمية ذلك... كونها المرّة الأولى التي يعترف فيها مسؤول رسمي عربي (رغم افتقاره لإمكانية التقرير الفعلي) بفشل العملية السلمية لأن إسرائيل لا تريد السلام... ولأنه وبعد اتفاقيات أوسلو وما تلاها، وبعد توقيع دولتين عربيتين لاتفاقيتين مع العدو الصهيوني، وفتح الكثير من العواصم العربية لمكاتب (تحت مسميات مختلفة) إسرائيلية فيها... سادت أجواء رسمية عربية مدعومة ببعض الأبواق والأقلام الإعلامية، وقوى وأحزاب عربية وفلسطينية (كان للبعض منها مواقف تاريخية سابقة ـ كالأحزاب الشيوعية ـ بإمكانية قبول إسرائيل بحل الدولتين لشعبين) وجرى التوجه نحو إقامة سلام مع إسرائيل، وابتدأ الصراع العربي ـ الإسرائيلي يأخذ مسمىً مختلفاً هو الصراع الفلسطيني ـ الإسرائيلي، بل كثيراًما أطلقوا عليه كلمة (النزاع). هذه الحالة الفلسطينية – العربية أفرزت حالة جديدة من التعاطي الرسمي مع إسرائيل، جرى التعبير عنها من خلال مشروع السلام الذي قدمته قمة بيروت العربية، والذي رفضه مباشرة وفي حينه رئيس الوزراء السابق شارون.

الحالة العربية أفرزت كذلك: توجهاً نحو حل (النزاع) مع إسرائيل عن طريق المفاوضات السلمية، بعيداً عن أشكال المقاومة العسكرية، التي وفي جزء كبير من عملياتها أصبحت تسمى (إرهاباً) غير مبررٍ، في حالة من التساوق مع التعبيرات التي تفرضها الولايات المتحدة.

كل ذلك كان يتم رغم إعلان إسرائيل عن استراتيجيتها للتسوية مع الفلسطينيين والعرب والتي لم تُخف قواعدها، فهي تنطلق من ثوابت يتفق عليها اليمين واليَسار الإسرائيلي.

النظرة الرسمية العربية إلى حزب الله انطلقت من نفس الأسس التي جرى التعامل بها مع المقاومة الفلسطينية، إضافة إلى محاولات التركيز على (ولاءاته الإيرانية) [illegible] تتهم الحزب (بالمغامرة).

ما صرّح به عمرو موسى، لن يجد ترجمته في توجه رسمي عربي جديد نحو إسرائيل، فبالرغم من كل مواقفها المعلنة وممارساتها النازية وعدوانيتها وشهيتها التدميرية ووضوحها التسووي، سيظل الموقف الرسمي العربي على المدى المنظور تجاه العلاقة معها ينطلق من أن السلام هو خيار استراتيجي، بعيداً عن الثوابت الإسرائيلية لأسس العلاقة مع العالم العربي.. وبالشكل الذي يضمن انفكاك النظام الرسمي العربي عن مهماته تجاه الرد على عدوانية إسرائيل من جهة، وفي النضال من أجل استعادة الحقوق الوطنية الفلسطينية والأخرى العربية.

الحسابات الإسرائيلية في شن الحرب على لبنان

بعد اللطمتين الموجعتين للجيش الإسرائيلي في غزة وجنوب لبنان، وانطلاقاً من خلفيات سياسية مبيتة، ولربما حاول المدنيان (اللذان لم يكن لهما تاريخ عسكري) المتسلمان لرئاسة الحكومة ووزارة الدفاع (وهما الجديدان أيضاً في المنصبين) إثبات جدارتيهما من خلال التسابق مع المؤسسة العسكرية وجنرالاتها في اتخاذ القرارات العسكرية، إن بالقوة التدميرية الهائلة والواسعة النطاق التي تطال المطارات والموانئ والجسور والمؤسسات التابعة للجيش، ومصادر المياه والكهرباء وخزانات النفط والطرق البرية الدولية بين لبنان وسورية وغيرها من المنشآت الحيوية، وأيضاً التابعة لحزب الله، أو محاولة ترويع المدنيين بقصف الأهداف المدنية والأحياء في المدن والقرى، وكذلك وسائل الحرب النفسية: المنشورات التي تلقيها الطائرات والإعلام الموجه، واستشهاد مندوب إسرائيل في الأمم المتحدة بما ورد في تصريحات بعض المسؤولين اللبنانيين، عن حزب الله (ومغامرته)، أثناء مناقشة قضية لبنان في مجلس الأمن، الترويج لإصابة حسن نصر الله، دعوة سكان الجنوب إلى تركه وغيرها.

إسرائيل تهدف من وراء عدوانها العسكري وإضافة إلى الترويع، حصار لبنان براً وبحراً وجوياً من أجل محاصرة اللبنانيين إن في المواد الحياتية الأساسية: الأكل والدواء والمياه والكهرباء، أو في قطع أحياء المدن بعضها عن بعض، وكذلك فيما بينها وبين القرى، وكذلك الأخيرة بعضها عن بعض.

دعوة إسرائيل لساكني القرى الجنوبية من أجل تركها، تهدف إلى إخلاء الجنوب بهدف محاولة الاستفراد بالقوات العسكرية لحزب الله، وهو تهيئة أيضاً لما قد يفكر فيه الجيش الإسرائيلي من اجتياح للأراضي اللبنانية أو القيام بمهمات (كوماندوز) محددّة.

الاجتياح بالنسبة لإسرائيل سيكون مكلفاً إن من الناحية البشرية بالنسبة لخسائرها، وكذلك في العتاد، إضافة إلى إمكانية خطف المزيد من جنودها وإضافة إلى ما يعنيه الاجتياح من حد لقدرات طيرانها ووسائلها الأخرى في المعركة نتيجةً للالتحام المباشر مع العدو، وهي لن تكرر تجربة الاجتياح كما في عام 1982 وما ألحقته بها من خسائر بشرية ومادية عسكرية، نتيجة إقامتها مواقع ثابتة في المدن والقرى اللبنانية شكلت أهدافاً وصيداً ثميناً للمقاومة اللبنانية، مما اضطرها إلى الاندحار من الجنوب نهائياً (باستثناء مزارع شبعا) في عام 2000.

من الحقائق الاستراتيجية بالنسبة لإسرائيل، أنها لا تحتمل الحرب الطويلة، وهي تعودت في كل حروبها على نقل المعارك إلى أرض أعدائها، كما أنها لا تحتمل الخسائر البشرية، إن في صفوف جنودها أو مدنييها، وهي في الجزء الأكبر من مواجهاتها، اعتادت على حرب الدول، والتي تختلف تماماً عن حروب المقاومة. لكل تلك الأسباب هي تقوم بالعدوان من خلال طائراتها وبوارجها ومدافعها وصواريخها... ومن غير المرجح قيام قواتها باجتياح لبنان. إسرائيل تخطط للاستمرار في هذه الحرب بضعة أسابيع على أبعد التقديرات، من أجل فرض شروطها، انطلاقاً من حسابات: التناقص التدريجي لما يمتلكه حزب الله من وسائل قتالية دون إمكانية التعويض عنها في ظل الحصار المفروض على لبنان، وكذلك اعتقادها بأن إطالة أمد المعركة سيخلق واقعاً معاناتياً صعباً للبنانيين، مما سيحفزهم على الانفضاض من حول حزب الله، بل مطالبته بتسليم الجنديين. إضافة إلى أن قوى 14 آذار ستصاعد من وتيرة هجومها على تفرد الحزب بمصير لبنان [illegible] جعلت [illegible] الإسرائيليين.

الحسابات السياسية والعسكرية لحزب الله

يخطئ من يظن عدم إجراء الحزب لوقفة سياسية وعسكرية شاملة قبل قيامه بأسر الجنديين، أو عدم توقعه لردود الفعل الإسرائيلية على خطوته... فتجربة العملية الفدائية في قطاع غزة قبل بضعة أسابيع من عملية حزب الله، بينت نوعية وحجم ردود الفعل الإسرائيلية على خطف الجنود الإسرائيليين... مما يوحي بإمكانية ممارسة نفس العدوانية على لبنان، وهو ما يجب أن يعتبر مؤشراً لحزب الله. والمراقب لأساليب العدوان العسكري الإسرائيلي الممارس في القطاع أو في لبنان، يلحظ أنه بنفس المواصفات تقريباً، ولكن مع توسيع إطاره في لبنان انطلاقاً من ظروف خاصة لبنانية.

في حسابات حزب الله السياسية... أنه أصبح مستهدفاً إسرائيلياً وأمريكياً، ولذلك هو يتوقع الضربة العسكرية، التي تريدها إسرائيل قاصمة لظهره انطلاقاً من: الانتقام مما فرضه الحزب على إسرائيل بسحب قواتها العسكرية من الجنوب في عام 2002، القضاء على قدرته العسكرية التي تشكل تهديداً للأمن الإسرائيلي، وما سيعنيه ذلك (في اعتقادهم) من فقدان إيران وسورية لورقة يضغطان من خلالها على إسرائيل، وفي حالة الانتقال إلى مرحلة تالية من العدوان على الدولتين واحدةً بعد الأخرى، فإن إسرائيل ستكون قد تخلصت من ورقة الضغط التي يشكلها حزب الله... مما يعني حريّة أكبر لإسرائيل في الاستفراد بالدولتين المذكورتين... هذا عدا عن أن كل بؤر المقاومة المسلحة في المنطقة أصبح من المطلوب القضاء عليها نهائياً.

المواجهة مع إسرائيل كانت متوقعة في حسابات الحزب، قد تكون في إطارها العام بعيداً عن بعض التفاصيل ومدى توسعة العدوان. ومن حيث مدة المعركة زمنياً، أدرك الحزب منذ اللحظات الأولى للهجوم الإسرائيلي بأن معركته ستطول، لذا وكما قال أمينه العام (لم يستعمل الحزب كل مفاجآته في الأيام الأولى للقتال، بل هو الذي يحدد الزمان والمكان لإظهار ما وعد به من مفاجآت... ولذلك بعد بضعة أيام من القتال قام بتدمير البارجة العسكرية (ساعر) والتي لم يقم بمثلها سوى الرئيس عبد الناصر في عام 1969 عندما تم إغراق المدمرة (ايلات)، ومن ثم انتقل إلى إطلاق الصواريخ على مدينة حيفا ومدن الجليل الأسفل إضافة إلى التهديد بقصف ما بعد حيفا، وما بعد بعد حيفا، مما يعطي مصداقية لما ذكرته صحيفة هآرتس من توقعات مجلة جينيز (المختصة بالشؤون العسكرية) بأن لدى الحزب صواريخ متطورة يصل مداها إلى مدينة بئر السبع ومدينة عسقلان. وهي أيضاً من المرات النادرة التي يتم فيها قصف المدن الإسرائيلية بشكل متواصل. كما أن الحزب يتحكم في عدد صواريخ الكاتيوشا التي يطلقها على المستعمرات والمدن الإسرائيلية بالشكل الذي يوحي فيه بأنه مقل في إطلاقها، انطلاقاً من أن المعركة ستطول وبأنه ما زال يتحكم بشكل من الأشكال في المعركة الدائرة.

لم يكن في حسابات حزب الله لا الدعم السوري أو الإيراني المادي له، انطلاقاً من ظروف المعركة، ولا الدعم السياسي الرسمي العربي انطلاقاً مما جرى في غزة، ومن قبل أثناء الاجتياح الإسرائيلي للبنان عام 1982 حينما حوصرت المقاومة الفلسطينية في بيروت ثلاثة أشهر دون تأثير يُذكر للدول العربية على الحد من همجية الاعتداءات الإسرائيلية.

ولذلك فإن حسابات الحزب العسكرية تنطلق من تقدير قواه الذاتية وفيما يمتلكه من أسلحة، اعتماداً على قدرته على تحقيق شكل من الردع مع إسرائيل، وقدرته على إيذاء منشآتها المختلفة، وتهديد مواطنيها إذا ما ارتأى ذلك... وهو ما أشار إليه أيضاً زعيم الحزب حسن نصر الله في خطابه المتلفز، والذي وعد فيه بالمزيد من المفاجآت.

يراهن الحزب أيضاً على استمرار تأييده من قبل غالبية فئات الجماهير الشعبية اللبنانية، التي ورغم معاناتها ما زالت تعبر عن هذا الاحتضان.. إن في الحد من كثافة الهجرة من الجنوب (وفق ما تطالب إسرائيل) أو في إدراكه وتقبله لما يطرحه من شعارات تلامس الجانب الروحي والوطني لشعبه، في الإصرار على مبادلة الأسرى اللبنانيين والفلسطينيين والعرب مقابل الإفراج عن الجنديين، أو في الدفاع عن الكرامة الوطنية اللبنانية والعربية أيضاً أمام العدو الصهيوني، واستمرار تشكيلة لسد مانع ورادع أمام القوات الإسرائيلية في المستقبل. يراهن الحزب على تأييد الجماهير العربية (محدودة التأثير) وما سيفرزه طول المعركة من تداعيات... دون أخذ ذلك في الحسابات المادية والواقعية فيما يواجهه من معركة.. هي في فحواها (معركة كسر عظم) بالنسبة إليه.. فإما يكون بعدها أو لا يكون!

في حسابات الحزب السياسية أيضاً، الحوار الوطني الدائر في لبنان، ووضع سلاحه على جدول الأعمال ومطالبة قوى 14 آذار بسحب هذا السلاح، في تجاهل واضح منها (قصداً أو عن غير قصد) لاستمرارية الخطر الإسرائيلي، وقدرة الحزب على التصدي لهذا الخطر في ظل عدم امتلاك الدولة فعلياً لم يدرأ هذا الخطر... بالتالي فإن المعركة الدائرة حالياً تكتسب بالنسبة للحزب أهمية مضاعفة، فعدا عن مضامينها الوطنية، فإن على نتائجها يترتب وضعه المستقبلي على الساحة اللبنانية.

تكامل المقاومتين: الفلسطينية واللبنانية

يخطئ من يظن أيضاً بانفصال الوضعين الفلسطيني واللبناني في حسابات حزب الله، فإلى جانب منطلقات الحزب الدينية والوطنية في النظرة إلى الوجود الإسرائيلي، كورم سرطاني في المنطقة العربية، وأخطار هذا الوجود على عموم المنطقة، وهو ما يتماهى مع ما تؤمن به تنظيمات عديدة فلسطينية، وغالبية الجماهير اللبنانية والفلسطينية والأمة العربية بأكملها من المحيط إلى الخليج، وعموم الشعوب الإسلامية، وشعوب وقوى أخرى على الصعيد الإنساني الدولي.. مما يساهم في تعميق التلاحم العضوي بين المقاومتين: الفلسطينية واللبنانية، إضافة إلى الأبعاد العربية في منطلقات حزب الله (وإن مالت باتجاه النظرة الإسلامية أكثر منها إلى العامل القومي) مما يعطي بعداً مضاعفاً لهذا التلاحم. ولذلك من الطبيعي أن يأخذ الحزب في حساباته ما تمر به الساحة الفلسطينية من اعتداءات ومجازر يومية ترتكبها إسرائيل ضد الشعب الفلسطيني. ولذا من الطبيعي أن يرى حزب الله في ما قام به من عملية فدائية بطولية.. إنجاداً حقيقياً للمقاومة الفلسطينية وتخفيفاً من معاناة الشعب الفلسطيني من خلال توسيع دائرة المعركة.. وهي رؤية وطنية عربية إسلامية أصلية في منطلقاتها وفي تقديراتها الاستراتيجية للصراع وعوامله ومقتضياته الوطنية، وترابط الخاص الوطني مع البعد العربي كمبدأ أساسي هام لكسب المعارك الوطنية والأخرى العربية، على قاعدة من التأثر والتأثير لكل من العاملين في الآخر، وهي نظرة بعيدة المدى أيضاً.

إن عمليتي المقاومة الفلسطينية وحزب الله بأسر جنود إسرائيليين في معارك عسكرية، وضد عسكريين، وفي مناطق محتلة من قبل القوات الإسرائيلية، وفي حالة من المواجهة (وليس السلام) بين كل من المناطق الفلسطينية ولبنان من جهة، وإسرائيل من جهة أخرى.. هما عمليتان مشروعتان وقانونيتان ومجازتان وفقاً للقوانين الشرعية التي أقرتها الأمم المتحدة، والتي تضمن للشعوب المحتلة مقاومة محتليها بكافة الوسائل والسبل، بما في ذلك الكفاح المسلح.. وبالتالي من الخطأ.. بل من الخطيئة إلقاء تبعات العدوان الصهيوني الممارس ضد المناطق الفلسطينية أو ضد لبنان، أو ما قد يمارس ضد دول عربية وإقليمية أخرى على هاتين العمليتين!

توقعات مستقبلية قريبة للعدوان الصهيوني على لبنان

بعيداً عن العواطف والرغبات، بل تقييماً موضوعياً لمسيرة المقاومتين الفلسطينية واللبنانية كطليعتين للشعبين الفلسطيني واللبناني والأمة العربية بأكملها ولكل ما هو إنساني وعادل، وانطلاقاً من عدالة القضايا التي يطرحانها، واستذكاراً لنضالات وتجارب شعوب احتلت أراضيها في قارات ثلاث، وتمكنت من طرد محتليها وفقاً لقانون الصراع.. فإن العدوان الصهيوني على لبنان، وإن طال زمنه، سيظل يصطدم بصخرة المقاومة الوطنية اللبنانية، التي يمثلها حزب الله ومن ورائه قطاعات عريضة من الشعب اللبناني وكل الجماهير العربية. هذه المقاومة التي أثبتت بالفعل قدرتها على الرد والردع، والتي لديها الإمكانيات العسكرية الفعلية لمدى زمني طويل، والقادرة على إيذاء العدو في مفاصل مؤلمة... فمن يوجه صواريخه إلى أهداف محددة، قادر على توجيهها إلى أهداف موجعة مثل: مصافي البترول والمصانع الكيماوية في حيفا (مثلما ذكر أيضاً رمز المقاومة حسن نصر الله، والذي يستمع إليه الإسرائيليون في كافة مواقعهم ويصدقونه تماماً، مخاطباته تجري ترجمتها مباشرة من خلال الإذاعة والتلفزيون الإسرائيلي، ووفقاً لاستطلاعات الرأي التي أجرتها المعاهد الإسرائيلية المختصة، فإن غالبية الإسرائيليين يثقون فيما يقول وفيما يطلقه من وعود)، وإذا كان أربعة عشر مقاتلاً فلسطينياً في مخيم جنين لا يمتلكون من الأسلحة غير البنادق الرشاشة والطلقات محدودة العدد، قد تمكنوا من إيقاف تقدم القوات الجحفلة الإسرائيلية مدة اثني عشر يوماً، والتي كان يشرف عليها شارون وموفاز شخصياً، ولم تتمكن هذه القوات من الدخول إلى المخيم إلا بعد نفاذ أسلحة المقاتلين واستشهادهم جميعاً.. فكيف بالمقاومة اللبنانية البطلة التي تحارب على أرضها ووسط شعبها وفي دولتها، وتمتلك من الأسلحة الشيء الكثير، وينتشر عشرات الآلاف من مقاتليها في الجنوب وفي مختلف المناطق اللبنانية.. المؤمنة بقضيتها، والفولاذية الإرادة قيادة وكوادر وأعضاء ومقاتلين.. كيف لهذه المقاومة وبهذه المواصفات أن تنهزم؟

ولذلك وبعد أيام قليلة من القتال والعدوان الصهيوني على لبنان... بدأت ممارسة الضغوطات على حزب الله: دولياً.. من خلال الوفود السياسية المتتابعة في الوصول إلى لبنان (وفد الأمم المتحدة، وسولانا، ووفود أخرى قد تصل مستقبلاً) وهي تحمل حلولاً تستجيب في جوانب منها إلى الشروط الإسرائيلية، فبدلاً من قوات الطوارئ المنتشرة في جنوب لبنان، (والتي أخذت تطالب إسرائيل بسحبها) تجري الاقتراحات لاستبدالها بقوات تابعة للحلف الأطلسي أو قوات دولية!

عربياً ومحلياً: من خلال التركيز على (مغامرة) حزب الله وتفرده في ما يدعى (بقرار الحرب) بالنسبة للوطن اللبناني، وغيرها من المصطلحات كوسائل لممارسة الضغوط على الحزب.

قوى لبنانية كثيرة، وشخصيات وطنية ومسؤولون عديدون، وآخرون ومنذ بداية العدوان على لبنان، أدركوا طبيعة المرحلة ولذا رفعوا الشعارات المناسبة لها، والتي تتمثل في قضايا عديدة أبرزها: أهمية الوحدة الوطنية اللبنانية حكومة وشعباً ومقاومة، التركيز على وقف العدوان الصهيوني الذي يستهدف الوطن اللبناني والشعب والمقاومة اللبنانية... وبعد ذلك يستأنف الحوار بين الحكومة ومختلف ألوان الطيف السياسي اللبناني. أما سحب سلاح حزب الله وتموضعه في مواقع جديدة (بعد الشريط أو المنطقة العازلة التي تطالب بها إسرائيل)، وكذلك فرض الحكومة اللبنانية لسلطتها في الجنوب... فكل هذه القضايا محلية لبنانية، سيجد اللبنانيون في حوارهم حلولاً مناسبة لها، وهذه ليست مهمات، لا للإدارة الأمريكية، ولا للدول الغربية، ولا لإسرائيل ولا للأمم المتحدة.

الوقفة مع حزب الله هي وقفة ودفاع أيضاً عن الذات العربية

لقد لخّص السيد حسن نصر الله في كلمته الموجزة التي تضمنها خطابه المتلفز مساء الأحد، السادس عشر من تموز (يوليو) الحالي، أبعاد المعركة الدائرة وتداعياتها ونتائجها من خلال القول:

(بأن هزيمة المقاومة اللبنانية – لا سمح الله – هي هزيمة للأمة العربية بكاملها، وأن نصرها هو نصر لكل العرب).

في تقديرنا، ورغم تطرق الأمين العام لحزب الله إلى إمكانية الهزيمة، فإنه كان يود الإشارة من خلالها إلى الترابط ما بين الخاص الوطني والبعد العربي، وهو – كما ذكرنا – قانون أساسي من قوانين الصراع، لكن المعطيات والدلائل تشير في غالبيتها إلى الانتصار المؤكد للمقاومة ولشعبها ولأمتها في معركتها مع العدو الصهيوني ومحاولته فرض شروطه... ولذا فإن نصرة المقاومتين اللبنانية والفلسطينية بكل الوسائل والسبل هي واجب وطني، قومي، ديني، أممي، إنساني... لأن الوقفة معهما هي وقفة مع الذات العربية في كل مواقعها.

يبقى القول أخيراً... بأن الشروط الإسرائيلية والتي تدعيها لإيقاف عدوانها على لبنان، سوف لن تتحقق فإطلاق سراح الجنديين سيتم فقط من خلال عملية تبادل للأسرى، أما قوات الحزب فستظل في مواقعها، وستحتفظ بأسلحتها، وأي تغيير في هذه المعادلة، يتحقق فقط، على أرضية الحوار الوطني اللبناني، وبموافقة الحزب. فبعد كل هذه الدماء والمعاناة والتدمير لن يفرّط حزب الله بأوراق الضغط التي بين يديه.

---

* كاتب فلسطيني يقيم في الأردن